العقبة

جلس السائق « مدبولى » إلى عجلة القيادة من سيارته العجوز ، يجريها على الطريق العريض ، إذ يتحوى أمامه على مد البصر كالرقطاء فى انسيابها تنكمش وتنبسط ، فلا يملك هو إلا أن يروض سيارته ، مطاوعاً فى حركاته ليات ذلك الطريق ، وعلى جانبيه تترامى الحقول شاسعة تكسوها خضرة ونضرة.

كان هذا الصباح على غير المألوف من عادته ، جهم السحنة ، عاقد الجبين ، يضرب فى صمت وسهوم ، وبين شفتيه لفافة تبغ رخيصة ، يجذب منها الأنفاس وكأن دخانها المتصاعد هو أنفاسه المكروبة ، ينفثها من صدره ، تسرية عن فؤاده الكليم.

كيف لا وقد ألفاه الصباح الندى ، مقتعداً سريره الخشبى من حجرته المعتمة ، وقد سهر عامة الليل ، تتوسد حضنه المكتنز صغيرته « مبروكة » صريعة الحمى ، تسرى فى أوصالها رعدة ، فكأنها عصفور يدف بجناحيه مبتغياً على ضعفه الفكاك والانطلاق ، وعن كثب منه زوجه وقد تداخلت فى خمارها الأسود

وجلبابها السابغ كقطعة من الليل ، ابثت حيث هى جامدة لاتحسن من أمرها إلا تنهد الاستسلام، وفى مآقيها تتحير الدموع .

كان ذلك المشهد يتخايل أمام عينيه وقد جمحت السيارة جمحة أفقدتها الاتزان ، فشدد « مدبولى » قبضته على عجلة القيادة ، وهو يفيق من غفوته ، نائياً بالسيارة عن مخاطر الطريق ، وقد ثارت ثائرته ، فانبعث يسب ويلعن ، وما تمالك وهو فى قمة غضبه إلا أن يبصق بملء فيه ، بصقة عريضة ، ينعى على الطريق اختلاله .

وسرعان ما ألجم سيارته يحد من سرعتها ، فما لبثت أن تهادت مجهدة تتعثر خطاها بتموجات الطريق ، ما تلفظها فجوة حتى تتلقاها أخرى ، وكأن الطريق يستبين له ، وجه عكر تفشت فى نواحيه الغضون والتجاعيد .

حقاً إن الطريق ليفتقر إلى يد حاسمة تتولاه وتحد من اضطرابه وفوضاه . إنه وهو على حاله هذه ، يشكل على لقمة العيش ، ولا ريب ، الخطر كل الخطر .

ما أحوج « مدبولى » إلى سبيل هين ميسور ، يتلقى سيارته وديعة غالية يصونها ويحرص عليها ، ضامناً له الرزق فى سماحة وأمان.

لقد اعتاد « مدبولى » أن يصاحب « الطريق العريض »

openikandal.com

مع مطلع كل فجر ، بعد أن يؤدى الصلاة حاضرة ، فيعرج على التّرعة ينعش سيارته بما يسكبه عليها من الماء ، ثم يعرض خدماته على المسافرين عند الموقف الكبير ، مرتضياً ما يقدم إليه من أجر دون مماكسة ونزاع .

فلْيسرْ على بركة الله وهديه .

لقد يسر الله رزقه فازدهرت تجارته ، وعمه خير ، وما عتم أن استبانت على السيارة العجوز مخايل تلك النعمة وذلك الخير ، فنضت عنها أسمالها واكتست بردة الشباب النضر ، وقد رصعت جوانبها حكم وأمثال تزيدها نضرة وبهاء .

وأصبح « مدبولى » يزهو بسيارته ، يسوسها فى رفق ويحافظ عليها حفظ الأم لوليدها ، فلا يفتأ يستشف وجه الطريق فى تيقظ وانتباه حتى أضحى به خبيراً وبخباياه عليماً، كقارئ كف يطالع من بين تعاريج الخطوط كوامن الأسرار فى تمكن واقتدار.

إن ما يخيفه من الطريق فجوة تتصل بها عقبة متورمة كسرطان خبيث يتوعد الغافل بخطر محقق وهلك وشيك، فالطريق يخفيها فى حضنه عند موقعه المرتفع حتى لتكاد تخطئها الأنظار.

إنها فى تنفخها وانبعاجها تنكر مرأى السيارات ماضية إلى وجهتها تبتلع الطريق وتطويه أشد ما تكون حيوية ونشاطاً دون

أن تتصيد إحداها، تصرعها بما تنفثه على الطريق من سم زعاف .

لا غرو أن يحمل السائق « مدبولى » فى وليجة نفسه لهذه الحدبة المتورمة حقداً دفيناً؛ ولا غرو أن ينعقد بينه وبينها صراع ، حتى أصبحت شغله الشاغل فى ذهاب وإياب ، لا يفتأ يلتزم الحيطة والحذر مجنداً فى معركته اليومية حواسه جمعاء: العين منه ثاقبة ترصد الطريق فى تبصر ، واليد قابضة على عجلة القيادة فى إحكام توجه السيارة وجهة أمن وسلام ، والقدم آناً تحث السيارة على إسراع ، وآناً تبطئ بها فى تحرز واحتراس .

إنه كلما تخطاها حدجها فى استعلاء وكأنه يهمس لها فى سخرية : لن تناليني بسوء أيتها الحدبة الشوهاء ، ويخالها تبتسم له فى فتور متوعدة إياه فى هدوء دون أن تثير حولها الظن والارتياب.

لا ريب أنها باقية بقاء الطريق ، فجذورها متأصلة فى أحشائه يتعذر أن يسبر لها غور، وأن يصل إليها مبضع جراح.

ومر الوقت وشيكاً والسيارة ماضية فى مسيرها تتعثر ، و « مدبولى » يتوسم الطريق مبتئس الملامح ، يواصل التفكير فى مرض صغيرته ، وقد شعر بها تتشبث به عندما نحاها إلى زوجته ، وكأن لمسات يديها البضتين جمرات تحرق صدره ، فلا يلبث أن يزداد من عبوس وجهامة ، يجتر أحزانه ، ويقاوم

خدراً انساب فى أوصاله يكاد يطبق أجفانه .

وفيما هو كذلك ، إذا بالسيارة تصدم صدمة قوية ترفعها ثم تخفضها لتنحرف بها فى عنف على حافة الطريق ، فتتقلص فى مكانها ، ومن خيشومها يتصاعد بخار موصول هو زفرات تحسر لما نابها من توقف وانكسار .

ويزايل « مدبولى » مكانه من القيادة ، يتفقد السيارة ثائر النفس ، زائغ البصر ، مهوش الحركة ، لا يثبت على حال ، فتطالعه السيارة مهيضة الجناح ، وقد جمد محركها يلفظ فى عناء آخر الأنفاس .

ولا يتمالك « مدبولى » إلا أن يرتمى عليها بجرمه الثقيل يحتضنها وقد سرت فيه رعدة عارمة ، وكأن نهاره انقلب ليلا ، وكأنه على سريره الخشبي من حجرته المعتمة ، وعلى صدره ترقد صغيرته « مبروكة » ترجف وتهذى من وقدة الحمى ، وقد بسط لها صدره كله ملاذ أمن وسلام .

وينخرط « مدبولى » ينشج فى حرقة وهو يبصق ويبصق على الحدبة المتورمة ، على حين انبعثت قدمه تدق رأسها فى عنف واهتياج ، وكأن الحدبة المتورمة فى تثاؤبها ثغر يبتسم له ابتسامة زهو وانتصار .